الحلقة (٢)

قال تعالى في قصة سيدنا سليمان لما طلب من الأبالسة أن يأتوه بعرش بلقيس إليه فقال: {أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ* قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ* قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي}.

الشاهد: أن الله أمده بقوة العلم، فحينما عرف هذا العلم الذي يستحضر به الأشياء في لمح البصر، استعمله وأحضر هذا العرش في لمح البصر، هذا بيان لمنحة العلم من الله لهذا الشخص كيف كان سبباً في استحضار هذه الأشياء، جانب شيء عجز عنه غيره، كذلك بيان فضل العلم بفضل أهله الذين يدفعون عن الناس الضر ويبينون لهم الخير ويحذرونه من الشر {وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ...} فهذا بيان لفضل العلم وأثره على الناس وردعهم عما قد يضرهم وتوجيههم إلى ما فيه الخير.

كذلك آية أخرى {وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الذينَ يستَنْبطونهُ منهم} هنا دور العلم في تصحيح الحياة واستقامتها وعدم إظهار أو إشاعة فهم خاطئ أو إشاعة أمر سيء قد يضر بالناس، في حين أن رد هذا الأمر إلى أهل العلم سيكون سبباً لدفع هذه المضار التي تحدث بالمسارعة لنشر على ما يرد على الناس من أخبار وهم لم يمحصوها بعد ولم يرجعوا فيها إلى أهل الاختصاص، هنا دور المختصين في توجيه المجتمع توجيهاً صحيحاً وسليماً.

وكذلك فضل العلم في التعقل والإدراك العميق حيث قال عز وجل: {وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ} لأنهم لا يقفون عند ظواهر الشيء؛ وإنما يتعمقون لمعرفة الحكمة، واكتساب العبرة، ثم يفويضونها مع ما أعطاهم الله من علم على غيرهم لكي تنتشر الحكمة وينتشر الخير ودفع الشر.

كذلك فضل العلم في تمييز الإنسان بهذا البيان {خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}، ومن فضل الله عز وجل على الناس بأن جعل هذا البيان سبباً لتطور الحياة وتصاعدها، وسبباً لقدرة الناس على توجيه بعضهم بعضاً والأخذ بأيدي بعضهم بعضاً، فلو لم يكن لدى الإنسان بيان لما استطاع أن يوجه حياته توجيهاً سليماً، ولا أن ينقل الخبرات السابقة إلى الأجيال اللاحقة، وهذا البيان هو سبيل للتوجيه وسبيل لنقل الخبرات والتراث، لذلك امتن الله به على هذا الإنسان.

ومن الأمور الملفتة المهمة إلى أهمية العلم والقراءة أن من أول ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم الأمر بالقراءة، قال تعالى: { اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْأِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } هنا

امتنان لهذا وتوجيه للقراءة والعلم والتحصيل، لأن بالعلم يزهو الإنسان، وتتطور الحياة، تجتنب الانحرافات، وتحصل السعادة الدنيوية والأخروية.

هذه طائفة من آيات كريمة حثت على العلم وبينت فضل العلماء اللذين يحملونه، ومنها آية أخرى { فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُم طَائِفَةٌ لِيَتَفَقّهُوا فِي الدِينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُم إذَا رَجَعُوا إليهِم لَعلّهُم يَحْذَرُونَ} هذه الآية ترشد إلى جانب مهم، فطبيعة المجتمعات البشرية إذا استعرضناها نجد فيها نخب واعية متعلمة هي عادة تتولى زمام التوجيه في المجتمع، وبناء على هذه السُّنة الاجتماعية وجه الله إلى أن يكون في الناس أو في المجتمعات والقرى وفي الأقوام من يقوم وينهض للتفقه في الدين حتى يكون معلماً ومفقهاً للبقية، وكان النبي يرسل من يُقرئ الناس ويعلمهم الدين، فإذا دخل مجتمع معين إلى الإسلام أرسل معهم من يعلمهم ومن يقرؤهم هذا الأمر لتوجيه الحياة توجيهاً صحيحاً.

ومن الأحاديث الشريفة التي تدل على عظم مكانة العلم:

قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) فمن تفقه في الدين حصل على خير كبير وأجر عظيم، بل وفضل ومرتبة عند الله سبحانه وتعالى، فلا يمكن أن يحصل على الفقه في الدين إلا من ارتضاه الله سبحانه تعالى وهداه ووفقه، والفقه في الدين أوسع من فقه الأحكام فقط، وأعظم الفقه في الدين معرفة الله سبحانه وتعالى، ومعرفة أحكامه، ومعرفة سننه، فمن أراد الله به خيراً جمع الله له الفقه كله فكان فقيها في دينه، فهذا من خيار الناس، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا)، فعندنا خيرية مصدرها معدن الإنسان وخيرية مصدرها فقه الإنسان، فالعلم والمعدن، بعض الناس قد يكون معدنه طيباً وأخلاقه عالية ولكنه لم يكتسب العلم ولم يتزود منه، فيبقى عنده جانب نقص، لذلك حينما يكون جمع الخصلتين معا يكون فائقاً، لذلك قال عليه الصلاة والسلام: (خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا) لأن الإسلام لا يكتفي فقط بالمعدن أو الجبلة، بل لابد أن يضاف إليه صقل الجبلة بالعلم والتفقه في الدين.

ومنها: قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (العلماء ورثة الأنبياء)، بيَّن أن (الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر)، فالعالم خليفة للنبي صلى الله عليه وسلم في هذا العلم من هذا الوجه الذي أخذه، فمن علم بالأحكام فكذلك علم بالعقائد كذلك، وعلم بالأخلاق والسلوك كذلك، فبحسب اختصاصه، فيأخذ ويرث من علم النبي صلى الله عليه وسلم بقدر ما يأخذ من تراثه صلى الله عليه وسلم.

وجاء في الحديث خصلتان لا تكون في منافق: (حسن سمت، وفقه في الدين) فالله عز وجل ذم المنافقين، فبين أن أقوالهم قد تعجب الناس، يقول تسمع لقولهم، ولكن بيّن أن قلوبهم خالية من الفقه في الدين ومن الخشية لله عز وجل، وقد قال: { كأنهم خشب مسندة}، {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ

أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ}.

الفقه في الدين لا يمكن أن يكون إلا في الإنسان الذي منحه الله التقوى لأنها دلالة خير ودلالة محبة الله عز وجل للعبد، والله لا يحب المنافقين.

أيضاً من ذلك (فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي) ففضل النبي ليس على أي واحد من أصحابه؛ بل على أدنى رجل، ومعلوم أن الصحابة متفاوتون، فمنهم السابقون ومنهم الأقل والأقل وهكذا، ولذلك قال تعالى: { لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى} وقوله تعالى: { وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ}، فالصحابة ليسوا على مستوى واحد، ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم يبين هنا أن فضل العالم على العابد كفضل النبي صلى الله عليه وسلم على أدنى أصحابه، مما يدل على هذه المكانة الرفيعة للعالم وما اختص به.

وكذلك من الأحاديث الشريفة قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة) فالعلم طريق الجنة، **لماذا؟** لأن العلم هادٍ إلى السعادة وكاشف للظلمة، وطريق الجنة طريق نور، وطريق النار طريق ظلمة، وكلما تعلم الإنسان كلما كان أحرى لأن تنكشف عن بصيرته الغشاوة، ونحن هنا نقصد العلم النافع في الآخرة وليس العلم المعاشي، وإن كان العلم المعاشي مهماً ومفيداً بل وواجباً على المسلمين وهو من فروض الكفايات كما قال العلماء: من فروض الكفايات على المسلمين أن يتعلموا علم المعاشي؛ الطبي، والهندسي، من العلوم المعاشية وهو فرض كفاية، والمعنى إذا أهمله المسلمون كلهم أثموا، ولكن لا بد أن يقوم به أحد منهم أو طائفة من المسلمين بما يسد حاجة الأمة، ولو تركوه وحصل نقص في الأمة أثموا، إذن فعلم المعاشي ليس مذموماً لذاته وإنما المذموم أن يفضله الإنسان ويراه أرفع منزلة من العلم بالدين والعلم بالله وأحكام الله، فحينما ينظر المرء إليه من هذه الناحية فرؤيته فيها نقص وفيها خطأ، أما كونه مهماً ولابد منه فهذا أساس، والشرع وجه إليه كما قلت، وأن العلماء رحمهم الله بينوا أنه من فروض الكفايات على المجتمعات وعلى الأمة، والعلم المعاشي وحده لا يوصل إلى السعادة، بل قد يكون سبباً للهلاك إذا اغتر الناس بعلمهم بالظاهر، وقد حكى الله عز وجل لنا عن هذه الأمور، فمثلاً قوله تعالى: { يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ }، هذه طبيعة المجتمعات الحضارية من انهماكها في الدنيا والتنافس فيها وطلبها، تصبح العلوم المعاشية ترتقي للدرجة العليا وتكون هي المطلوبة وهي الأساس والمفضلة وهي المرغوبة، وتتضائل علوم الآخرة بقدر سيطرة المادة والنزوع إليها والتنافس فيها، كذلك كانت العلوم حينما اغتر بها أصحابها بما عرفوه من مصادر قوة بواسطة هذه العلوم كانت سبباً لهلاكهم لما أخلدوا إلى الدنيا وإلى القوة التي عرفوها، فمثلاً قوم عاد {قَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً

}، فاغتروا بما توصلوا إليه من مصادر القوة والجبروت، وغيرهم من الأمم الأخرى الذين اكتشفوا الجانب الصناعي أو عملوا في الجانب التجاري، أو نحتوا الجبال أو بنوا الأشياء العظيمة، وكل هذه الأمور لا تكون إلا بعلم، فمن المستحيل أن يصل الإنسان إلى هذه القدرات وهذه المهارات وهذه القوة إلا بعلوم، فكانوا على مستوى من العلوم أوصلهم إلى هذه القوى وهذه الصناعات، حتى قال الله عن قريش يبين أنهم لم يصلوا إلى ما وصل إليه السابقون قال: { وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا} فيبين الله سبحانه وتعالى عن هذه الأمم وجبروتها في نحت الجبال وغير ذلك مما كان، لكن العلم المعاشي ليس مذموماً لذاته، ولذلك عندما علِمه سليمان وداود عليهم السلام امتدحهم الله بهذا الأمر وبين أنه من نعمه تعالى عليهم، لأنهم استخدموه استخداماً صحيحاً في نطاقه؛ نطاق الحق، ولنصرة الحق، فكان خيراً وكان براً وكان نعمة {يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ} فبين الله عز وجل أن هذه العلوم والمهارات إذا استعملت في الحق كانت سبب خير وسبب ظهور للحق.

الشاهد: أن العلم منه علم معاشي ومنه علم معادي، والعلم المعادي هو العلم الأساسي في السعادة، والعلم المعاشي هو أساس في السعادة الدنيوية، وقد يُوْرِث الشقاء إذا لم يجتمع معه العلم المعادي

منهج الإسلام في الدعوة إلى العلم :

إن القارئ للقرآن الكريم والسنة المطهرة، يجد أن هناك عدة أساليب لحث الناس على العلم، قد يكون في حديثنا السابق إشارات لهذه الأشياء أو لهذه الأساليب:

فمثلاً **بيان العلم النافع** سبب من أسباب التشمير إليه، فهناك طريقة **الحث المباشر على تلقي العلم والنهوض إليه وعلى المسارعة إليه،** هذا أسلوب من الأساليب التي نجدها في القرآن الكريم وفي السنة المطهرة.

وهناك سبيل آخر وهو **سبيل استثارة الذهن وما أعطاه الله للإنسان من حواس وإمكانات ليستخدمها في تحصيل العلم** {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}، فهذا توجيه للإنسان أنك أيها الإنسان لديك طاقات وأدوات تستطيع من خلالها أن تكتسب ثروة لم تكن لديك من قبل (الثروة العلمية) فأنت خرجت من بطن أمك لا رأس مال عندك في العلم، وهنا نفرق بين أمرين، فإن الطفل يعلم بعض الأشياء، نقول إن هناك علم غريزي جبلي وليس الحديث عنه هنا، وإنما يبين الله لنا عن العلم المكتسب، لأن الإنسان إذا خرج من بطن أمه لا يكون عنده شيء من العلم المكتسب الذي يرده عن طريق السمع وعن طريق البصر وعن طريق الفؤاد، فهذه المنافذ التي يرث العلم منها، لم يكتسب بعد علم حين خروجه من بطن أمه، فهو يحتاج إلى توظيفها توظيفاً صحيحاً وسليماً لكي يصل من خلال ذلك إلى العلم.

ومن الأساليب التي وجدت في القرآن الكريم **تحميل الإنسان لمسؤولية الأدوات التي أعطيت له لتحصيل العلم** {إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً} فهنا مسؤولية الإنسان لذا جاء في الحديث الشريف: (لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع) وذكر منها (وعن علمه ماذا عمل به)، أنت تعلمت علماً فهل طبقت، هل أديت الأمانة بالبلاغ..... إلخ، يُسأل الإنسان عن هذا العلم لأنه مسؤولية.

كذلك في **الحث على إبلاغه** (بلغوا عني ولو آية) (نَضَّرَ اللَّهُ امْرَءًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَبَلَّغَهَ) أو كما قال عليه السلام (فرب مبلغ أوعى من سامع) فهنا التعاون على نقل العلم والمعرفة العلمية جيلاً بعد جيل، فهذه من الوسائل، ومعلوم ما لهذا الأمر أي نقل العلم والحفاظ عليه وتلقيه وتحمله وأدائه من أثر عظيم من الحضارة الإسلامية، حتى إن بعض العلوم قامت من أجل هذا الشيء، مثلاً علم الإسناد، ومصطلح الحديث، ونحوه من العلوم التي جاءت للتثبت من النص ونقله صحيحا سليما.

وأيضا من الطرق والأساليب التي جاءت **ضرورة التدقيق في العلم وألا ينقل إلا الصحيح**، لذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :(من كذب علي متعمداً فليبوأ مقعده من النار)، التحذير من التوسع في النقل والتساهل فيه، بحيث لا تنقل العلم إلا بدقة متناهية، يثبت عندك معناها علم صحيح، وأن القول بهذا الشكل، لأن العبارة إذا اختلفت قد يختلف المعنى، وكذلك العبارة إذا كانت خاطئة يتطرق الخطأ إلى المنقول إليه وهذا من الأساليب، أسلوب التثبت في النقل بالنص العلمي بحيث يكون نصاً صحيحا.

وكذلك من الأساليب في الدعوة **الحث على التعلم ونشر العلم** { فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِ فِرْقَةٍ مِنْهُم طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُم }.

كذلك من الأساليب **بيان فضل العلماء ومكانتهم وما لهم من الأجر العظيم** عند الله عز وجل.

وكذلك **التنبيه أن العلم طريق إلى السعادة والرضا والخير**، فهذه عدة أساليب من الأساليب التي وجه إليها القرآن والسنة لتحصيل العلم والتشجيع على ذلك غاية التشجيع، وقد أنتج هذا الحث وهذه الدعوة آثار عظيمة من العلوم التي خلفها العلماء المتكاثرون في مختلف الفنون في الحضارة الإسلامية، حتى كان العلم النظري فيها أو العلم الشرعي غالب على العلوم الطبيعية فيها، فكانت حضارة فائقة في هذا المجال، المجال الإنساني، والمجال الديني أكثر من المجال الطبيعي.